مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 15 / العـدد 02 / سبتمبر2021 / ص ص 17 - 27

Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

سؤال الانفتاح والانغلاق في الثقافة العربية الإسلامية عند جورج طر ابيشي

The question of openness and closeness in the Arab Islamic culture of George Tarabichi

عمار بوزيزه
جامعة الجزائر 2 (الجزائر) ، aminhayat755@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/06/08 تاريخ القبول: 2021/05/06 تاريخ النشر: 2021/09/30

ملخص:
تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن قراءة المفكر السوري "جورج طرابيشي" للنظرة الانفتاحية في الثقافة العربية الإسلامية، وكذلك النظرة الانغلاقية فيها؛ وهذا من خلال تركيزه على الجانب النفسي للنخبة المثقفة العربية التي تلقت صدمة قويَّة جرَّاء تقدم الغرب وتخلف العرب، كما أن هذا البحث يكشف عن الأسباب التي جعلت شريحة واسعة من النخبة المثقفة خاصة تهاجم الحضارة الغربية ليس لأن الغرب كان بالأمس مستعمرا للعرب، بل ترفض الغرب لأنه حامل حضارة وهنا تكمن الخطورة؛ لأن ذلك ينعكس سلبا على العالم العربي الذي يبحث عن سبل التقدم، وتتمثل أهم النتائج المتوصل إليها في أن العربي اليوم بصفة عامة والمثقف بصفة خاصة بحاجة إلى ثقافة الاعتراف؛ أن نعترف للآخر بتفوقه علينا وأن نسعى إلى تطوير أدواتنا المعرفية للاستفادة من حضارته ، وهذا لن يتأتى إلا بشرط إمكان هو الانفتاح على كل شعوب وحضارات العالم والتسلح بنظرة برغماتية معرفية تحترم الآخر وتتعلم منه.

كلمات مفتاحية: الانفتاح، الانغلاق، الجراح السيكولوجية، الأصولية الإسلامية، العيش معا

ABSTRACT:
This research paper aims to reveal the reading of the Syrian thinker "George Tarabishi" on the open view of Arab-Islamic culture, as well as the closed view on it. This is through his focus on the psychological side of the Arab intellectual elite, which received a strong shock due to the progress of the West and the backwardness of the Arabs, as this research reveals the reasons that made a wide segment of the educated elite, especially attacking Western civilization not because the West was a colonial of the Arabs yesterday, but rather rejects the West because it Holder of civilization and here lies the danger; Because this reflects negatively on the Arab world, which is looking for ways to progress, and the most important findings are that the Arab today in general and the intellectual in particular need a culture of recognition; To acknowledge the superiority of the other over us and to strive to develop our knowledge tools to benefit from his civilization, and this will not come unless a condition is open to all peoples and civilizations of the world and armament with a pragmatic, cognitive view that respects the other and learns from it.

Keywords: openness, Close-up, Psychological surgeon, Islamic fundamentalism, Live together

- المؤلف المرسل: عمار بوزيزه

ISSN: 1112 - 6752 | رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

1- مقدمة:

إن من أهم الموضوعات التي تهتم بها النخبة المثقفة العربية هو الآخر الذي غالبا ما يكون هو الغرب صاحب حضارة اليوم، ولعل الكثير من الأقلام العربية تسعى إلى تصوير الغرب على أنه سبب المشاكل التي يتخبط فيها العالم العربي؛ وعليه فهي تعلق كل فشلها على مشجب الغير؛ من منطلق أن هذا الآخر/ الغرب كان بالأمس مستعمرا لنا؛ لكن هذه الحجة سقطت في الماء؛ من منطلق أن الغرب اليوم كفَّ أن يكون مستعمرا ومع ذلك تسعى الانتلجنسا العربية جاهدة على تُؤَبْلِسَ الغرب، وفي ظل هذه ا أجواء الثقافية ظهر الكثير من المفكرين وعالجوا إشكالية الانفتاح والانغلاق في الثقافة العربية، ومن بينهم الفكر السوري "جورج طرابيشي" Georges Tarabichi الذي تناول إشكالية الانفتاح والانغلاق في أوساط النخبة المثقفة العربية وكذلك تناولها من زاوية أخرى وهي زاوية العصور الوسطى، ولعل أهم مسألة ركز عليها هذا المفكر هي الأصولية الإسلامية ونظرتها إلى الآخر، ومن خلال هذا الطرح نتساءل: كيف تنظر الأصولية الإسلامية إلى الآخر؟ وإذا كان الإسلام دين انفتاح واحترام للآخر ـ بغض النظر عن معتقده ـ فكيف سيكون موقف "طرابيشي" من الإسلام وتعامله مع غير المسلمين؟ وهل انغلاق العرب على أنفسهم كفيل لهم بالحفاظ على خصوصياتهم الثقافية وشرط إمكان لهم للتقدم؟

إنَّ هذا البحث يهدف إلى تسليط الضوء على ذهنيات الانفتاح والانغلاق في الثقافة العربية، سواء من خلال مواقف النخبة المثقفة المعاصرة، أو من خلال التراث العربي الإسلامي، كما يهدف إلى إبراز دور العيش المشترك في تطوير المجتمع المبني على احترام الآخر بخصوصياته، ويهدف إلى معرفة دور ثقافة الاعتراف في تطوير المجتمع.

ومن أجل الإجابة على الإشكالية المطروحة سابقا وضعنا النقاط البحثية التالية:

- عصر النهضة والجرح النرجسي:
- الحاجة إلى تضميد الجرح النرجسي:
- الأصولية الإسلامية وذهنية الانغلاق:
- مناقشة قراءة طرابيشي لإشكالية الانفتاح والانغلاق في الثقافة العربية الإسلامية:

2- عصر النهضة والجرح النرجسي:

يرى "طرابيشي"*[1] أن الإشكالية المركزية لعصرنا ـ على الأقل من وجهة نظرنا نحن أبناء الهامش الذين نحتل فيها الموقعا السالب ـ هي إشكالية التقدم والتأخر، ولكي يبيّن صاحب مشروع نقد النقد خطورة هذه الإشكالية فإنه يستشهد بالأطروحة الفرويدية وإن جاز بنوع من التكرار ـ من منطلق أنه ذكرها في عدّة كتب ـ فمن المعلوم أن "فرويد" نشر مقالا عام 1917؛ تحدث فيه عن جرح يسميه "الجرح النرجسي الكوني"، إذ نشأ بسبب الإذلال الذي تعرضت له البشرية ثلاث مرات نتيجة لتقدم العلم وتوالي كشوفه (طرابيشي، 2000، صفحة 79).

[1] * جورج طرابيشي {2016/1939}م مفكر وناقد ومترجم سوري، ولد في حلب حيث تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي، وهذا قبل أن يلتحق بجامعة دمشق لينال منها إجازة في اللغة العربية وماجيستير التربية، اشتغل في ميدان الصحافة طويلة؛ فهو مدير لإذاعة دمشق في الفترة { 1963-1964}م، قبل أن يتحول إلى رئاسة العديد من المجلات وأهمها مجلة دراسات عربية في الفترة { 1972-1984}م، هذا وبعد "طرابيشي" مؤلف ومترجم غزير، الإنتاج فهو من أهم المنتجين لفرويد وهيجل وجان بول سارتر...الخ، ولقد كتب "طرابيشي" في مجال عدة الأدب والفلسفة والفكر، كما يعد من أهم نقاد "محمد عابد الجابري" وأسس مشروعه الخاص الذي يعرف بنقد النقد. (القرني، 2000، الصفحات 63- 64- 65)

هذا ولقد كان أول تلك الجراح "الجرح الكوسمولوجي"، وهو { ذلك الجرح الذي أحدثته نظرية كوبرنيكوس عندما قلبت معادلة الجاذبية الكونية وبدلت قطب المركزية في النظام الفلكي وقررت الحقيقية المؤلمة بالنسبة إلى عزة نفس البشرية وهي: أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض} (طرابيشي، 2006، صفحة 93)

إن ما يريد "طرابيشي" التأكيد عليه هنا هو أن البشرية تعرضت إلى إذلال سبب لها جرحا؛ لأنها كانت تؤمن لقرون طويلة أن الشمس تدور حول الأرض؛ ولكن تقدم العلم أثبت بالأدلة الدامغة أن الأرض هي التي تدور حول الشمس.

أما الجرح الثاني فيسميه "فرويد" "الجرح البيولوجي"؛ وهو جرح تسببت فيه "نظرية داروين" { التي قررت حقيقة جارحة أخرى للنرجسية البشرية الكونية: الإنسان الذي طالما افتخر وتباهى بأصله السماوي وتصور نفسه مخلوقا من روح الله وعلى صورته ومثاله، وجد ذاته مكرها، تحت ضغط البرهان العلمي على الاعتراف بأن السلالة البيولوجية التي تحدَّر منها هي السلالة الحيوانية} (طرابيشي، 2000، الصفحات 79-80)

إن الذي جعل "فرويد" يقول بهذا الجرح هو أن "نظرية داروين" كان لها صداها فهي استقطبت اهتمام الكثير من الباحثين على المستوي العالمي؛ لكن هناك من لا يؤمن بهذه الفكرة، وفيما بعد تم التأكيد على عدم صحة هذه الفكرة.

أما ثالث الجروح فهو "الجرح السيكولوجي" ويتمثل في التحليل النفسي؛ الذي يمثل بدوره نظرية انقلابية، لأنه أثبت أن الكثير من قرارات الإنسان غالبا ما تكون متعيِّنة بالعمق اللاشعوري أكثر منها بالسطح الشعوري. (طرابيشي، 2000، صفحة 80)

إن ما يريد "فرويد" قوله من خلال هذا الجرح هو أن الإنسان في أغلب قراراته راجعة إلى الغرائز والدوافع، وليس إلى العقل، وهذا ما جعل الإنسان حسب اعتقاده يشعر بالإذلال؛ وهو الذي كثيرا ما يتغنى بالعقل الذي يميِّزه عن سائر الكائنات الأخرى.

يرى "طرابيشي" أن هناك جرح رابع في تصوره وهو الجرح الأنثروبولوجي؛ وهو جرح يعاني منه الإنسان العربي حصرا حيث يقول "طرابيشي" { وفي الحالة العربية فإن هذا الجرح الأنثروبولوجي كان مضاعفا، فأمم أخرى وثقافات أخرى ما زاد الأمر بالنسبة إليها عن ان تكتشف أن الغرب قد تقدم فيما ظلت هي تراوح مكانها؛ أما في الحالة العربية، فقد اقتران السؤال: لماذا تقدم الغرب؟ بآخر لا يقبل عنه انفصالا: لماذا تأخرنا نحن العرب المسلمين؟} (طرابيشي، 2006، صفحة 94)

إن مشكلة العالم العربي تتمثل في أن العرب لم يكتفوا بمشاهدة تقدم الغرب فقط؛ إنما اتجهوا نحو التخلف، وهذه مشكلة حقيقية، ويرى "طرابيشي" أنه ثمَّة إجماع في الخطاب العربي المعاصر؛ على توصيف لحظة احتكاك العالم العربي بالغرب بأنها كانت بمثابة "صدمة"، وتعددت أوصاف هذه الصدمة؛ فهناك من يرى أنها صدمة استعمارية؛ وهناك من يرى أنها صدمة حضارية أو صدمة الحداثة...الخ (طرابيشي، 1991، صفحة 17)

هذا ويذهب "طرابيشي" أنه في الوقت الذي اكتشفت الأمم الأخرى أنها متخلفة؛ وترجمت تخلفها بنقص التطور، فإن العرب ترجموه تأخرا بل انحطاطا؛ { ولهذا تصوروا تقدمهم نهضة؛ بل ولادة ثانية وبعثا RENAISSANCE وهذا التعبير يستحضر إلى الذهن حالا النهضة الأوروبية؛ ولكن لابد هاهنا أيضا أن نلحظ فارقا أساسيا: فالنهضة التي عرفتها أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر قامت على "محاكاة" للعصور القديمة اليونانية ـ الرومانية. أما النهضة العربية، التي تصورت نفسها "نشأة مستأنفة"، فكانت ضربا من التقمص وإعادة التماهي: "Réidentification "} (طرابيشي، 2000، صفحة 81)

إن ما يريد صاحب مشروع نقد النقد التأكيد عليه هو أن النهضة العربية لم تقم بالقطيعة كما قامت النهضة الأوروبية، بل نظرت إلى نفسها على أنها لحظة استئناف، لذلك لم يحدث لها التغير الحقيقي.

يرى "طرابيشي" أن المنطق المسيطر على عصر النهضة العربية هو أنه من أجل نهضة العرب؛ لابد أن يكونوا هم العرب أنفسهم من يقومون بذلك؛ دون حاجة إلى غيرهم؛ وهذا المنطق قد أدى في نهاية المطاف إلى تحميل "الأغراب" مسؤولية الانحطاط،

وهذا المنطق القومي العربي الذي مفاده أن العرب ما انحطوا إلى باختلاطهم بالأغراب، أوشك أن يكون عينه بتجدده في الأصولية الإسلامية؛ بمعنى أن الإسلام ما انحطَّ إلا بقدر ما كفَّ أن يكون إسلاما، أي إعادة الإسلام إلى نقائه الأول، فالإسلام هو اليوم في جاهلية جديدة، وليس المطلوب أقل من إعادة أسلمته. (طرابيشي، من النهضة إلى الردة تمزقات الثقافة في عصر العولمة، 2000، صفحة الصفحة نفسها)

إن الحضارة الغربية تطورت بعد أن استفادت من الحضارات المختلفة وخاصة الحضارة العربية الإسلامية؛ ولكن العرب اليوم لا يريدون أن يعترفوا بقوة الحضارة الغربية ويسعوا للاستفادة منها لذلك؛ سيطر عليهم منطق قومي أعرج مفاده أن يمكن تحقيق نهضة عربية على شاكلة النهضة الأوروبية دون الاختلاط بالأغراب، لأن هذا الاختلاط سبب تخلف العرب حسب اعتقادهم.

3- الحاجة إلى تضميد الجرح النرجسي:

إن "طرابيشي" يطرح تساؤلا جذريًّا هو ألا يعود صعود مدّ الأصولية الإسلامية في سبب رئيسي من أسبابه إلى العجز عن تضميد هذا الجرح من جراء فشل مشروع التحديد العربي؟ يُجيب عنه مفكرنا بالقول { ولكن أخطر نتائج الجرح الأنثروبولوجي تتجلى على الصعيد الثقافي. فما دام الآخر، أو بالأحرى تقدمه، هو مصدر هذا الجرح، فإن استمرار النزيف النرجسي، أي عمليا استمرار التخلف العربي، يُوجِد حاجة دفاعية إلى تضخيم الأنا وتحجيم الآخر} (طرابيشي، 2000، صفحة الصفحة نفسها)

إن ما نفهمه من خلال هذا النص هو أن الطبقة المثقفة هي التي تعاني من نزيف الجرح النرجسي، ولكن توهم نفسها أنها توقف هذا النزيف تلجأ إلى تضخيم الأنا، وتعليق سبب التخلف في الآخر، الذي تسعى إلى التقليل من قيمته.

هذا ويؤكد "طرابيشي" أن الكثير من الكتابات توضح فضل الحضارة العربية الإسلامية على الحضارة الغربية، وهو يرى أننا لا نشكك في مديونية الحضارة الغربية للحضارة العربية الإسلامية، ولكن هناك مسكوت عنه يتمثل في أن { مصدر الجرح النرجسي ليس العصر الوسيط المتأخر الذي استدان على سعة من الثقافة العربية الإسلامية وطوَّر، فيما طوَّره انطلاقا منها، الرشدية اللاتينية مثلا، وإنما مصدر الجرح هو أوروبا عصر النهضة وأوروبا القرن السابع عشر التي كانت وراء مولد الحداثة الغربية وتقدمها المذهل على امتداد القرون الثلاثة التالية } (طرابيشي، 2000، صفحة 82)

إنَّ ما يريد "طرابيشي" التأكيد من خلال هذا النص هو أن الكثير من الأقلام الثقافية العربية تتغنى بمديونية الحضارة الغربية للحضارة العربية الإسلامية؛ ولا مشكلة في ذلك لأن الكثير من الباحثين الغربيون يقرون بذلك؛ لكن السبب الذي يجعل هؤلاء المثقفين العرب يكررون أسطوانة دور الحضارة العربية الإسلامية في تطور الغربية هو أنهم يعانون من جرح؛ يتمثل في النهضة الأوروبية وتطور الحضارة الغربية في مقابل تدهور وانحطاط العرب.

يرى "طرابيشي" أن من بين أسباب استمرار نزيف الجرح النرجسي، هو أن الذات العربية لا تقوم بنقد ذاتها حيث يقول: { وهذا ما لا تستطيع وما لا تجرؤ على القيام به الذات الجريحة التي لا يزيدها استمرار نزيفها إلا عجزا عن اتخاذ موقف نقدي من ذاتها، علما بأن الموقف النقدي من الذات هو شرط النهضة والإقلاعة Décollage الحضارية كما تثبت ذلك تجربة الحداثة الغربية } (طرابيشي، من النهضة إلى الردة تمزقات الثقافة في عصر العولمة، 2000، صفحة الصفحة نفسها)

إن مفعول الصدمة كان له دور سلبي في النشاط النقدي العربي؛ ولكن رغم تهيئة المشهد النقدي في فضاء الوعي بالصدمة، فإنه يمكن القول أن الجيل الأول كان يفتقر إلى التنظير والإبداع الفلسفي، فنصوص عصر النهضة العربي تتضمن كثير من الحماسة الأيديولوجية وقليلا من التنظير النقدي. (بوقاف، 2017، صفحة 172)

هذا ويؤكد "طرابيشي" أنه { لاشك أن عصر النهضة العربي كان أنجز في مطالع القرن العشرين تقدما مرموقا على طريق نقد الذات ... ولكن طغيان الأيديولوجيا في عصر "الثورة" الذي نصَّب نفسه قيما على "النهضة" وقاد نفسه وإياها في خاتمة المطاف إلى الفشل } (طرابيشي، 2000، صفحة 83)

إن "طرابيشي" يرى أن للأيديولوجيا دور سلبي على المثقف العربي، والأيديولوجيا حسب ما يعرفها هي { حجاب حاجز بين الوعي والوقع } (طرابيشي، 2008، صفحة 142) وما دامت أنها حجاب وحاجز فهي أمر خطير تجعل المثقف لا ينتبه إلى الواقع ليتفكر فيه ويبحث فيه مباشرة من أجل تغييره.

4- الأصولية الإسلامية وذهنية الانغلاق:

يرى "طرابيشي" أن هناك "أزمة معنى" في أوساط النخبة المثقفة الأصولية، فهذه الأزمة هي { أزمة النزيف الذي يأبى أن يتوقف، والجرح الذي يأبى أن يندمل. وكيف له أن يندمل أصلا ما دامت كل المسافة ما بين شفة الجرح وشفته الأخرى يحتلها "الآخر" بكل خصومته وبكل عداوته، بكل ما سمِّيته، أي "تقدمه" المعمَّد باسم "جاهلية القرن العشرين"، كما يقول العنوان المشهور لأصولي رائد هو محمد قطب؟ } (طرابيشي، 2000، صفحة الصفحة نفسها)

هذا ونجد "محمد قطب" يقول في كتابه "جاهلية القرن العشرين" { سيعجب الناس من العنوان .. وسيستنكره كثيرون ! القرن العشرون؟ ! .. الحضارة والمدنية.. العلم والكشوف التنظيم والتنسيق.. سيطرة الإنسان على الطبيعة .. الذرة والصاروخ. كل ذلك جاهلية ! } (قطب، 1992، صفحة 5)

ربما يقصد صاحب هذا النص أنه رغم التطور التكنولوجي في القرن العشرين، إلا أن البشرية بعيدة عن القيم الأخلاقية السامية؛ لكن ما لا يستنكره "طرابيشي" هو رفض الآخر صاحب الحضارة، والنظر إليه على أنه عدو وأنه سبب تخلف العرب؛ كما أنه في مجال القيم هناك عدَّة أمثلة توضح أنه هناك الكثير من الناس ممن يعيشون التطور في الدول الغربية يقدمون أسمى الأمثلة عن القيم الإنسانية.

هذا ويؤكد "طرابيشي" أن ما ترفضه الأصولية الإسلامية على صعيد الواقع المعاصر ترفضه بنوع من الإسقاط؛ في الماضي التاريخي، فهي لا تريد سوى أن تكون { "الواقعة الإسلامية" خالصة مصفّاة، ومن هنا رفض الاعتراف بجميع الحضارات والثقافات التي مهدت لميلاد الإسلام؛ ومن هنا أيضا رفض الاعتراف بمساهمة تلك الحضارات والثقافات، بمن في ذلك الذين تعربوا وأسلموا من أبنائها، في تكوين الحضارة العربية الإسلامية وتطويرها. ففلسفة التاريخ الأصولية انفصالية مطلقة، وكل اتصالية في نظرها ضرب من الشرك أو جاهلية مستأنفة } (طرابيشي، 2000، صفحة 84)

إنَّ هذا النص يوضح أن "طرابيشي" يرى أن الأصولية الإسلامية لا تملك ثقافة الاعتراف، لأنها لا تعترف بفضل الذين تعربوا وأسلموا في بناء الحضارة العربية الإسلامية، وخير مثال نقدمه على ضمور ثقافة الاعتراف عند الكثير من المثقفين العرب، أطروحات "زكي الأرسوزي"؛ إذ يؤكد أن كبار المستعربين الذين أفسدوا اللسان العربي نجد "ابن المقفع"، "الفارابي"، "ابن سينا"، "الغزالي"...الخ وهو لا يرى للعرب من مخرج من مأزق الانحطاط إلا بالعودة عن كل التراث الذي خلفه هؤلاء "الدخلاء" وتطهيره من كل السموم. (طرابيشي، 2012، صفحة 25)

إن تاريخ العلم شاهد أنه في العصر الوسيط سيطر المسلمون على العالم لقرون، ونبغ مجموعة من الفلاسفة والعلماء وكانوا أساتذة العالم؛ في ميدانهم فنجد مثلا "بن سينا" في الطب الذي اكتشف مرض "الأنلكستوما" دودة تسبب فقر الدم، ليعيد اكتشافها من طرف "أنجيلو دوبيني" عام 1838م، و"الرازي" مثلا أول من وصف بوضوح ودقة مرض الجدري، ولـ"الزهراوي"

الفضل في الجمع بين الطب والجراحة، و"الفارابي" في المنطق وفي الفلسفة، و"جابر بن حيان" في الكيمياء...الخ (جاري، 2017، صفحة 35)

إن هؤلاء الفلاسفة والعلماء لم يكونوا عربا إنما من أصول مختلفة، لكن الآخر/ الغرب هو من استفاد منهم وهو من اعترف لهم بفضل جهودهم التي أفادت أنارت درب علماء الغرب، لتطوير التكنولوجيا التي أفادت البشرية جمعاء.

هذا ويرى "طرابيشي" أن التصور الانفصالي للأصولية الإسلامية يتعارض تماما مع الإسلام ومع ما جاء به القرآن، ففي الشام سقطت الكثير من المدن بلا قتال أو سلمت المفتاح باليد كما جرى في القدس؛ فالنصارى اليعاقبة كانوا ضاقوا ذرعا من سوء معاملة الروم وملكهم هرقل؛ فسارعوا يفتحون مدنهم أمام الفاتح الإسلامي الذي أقر لهم بحقهم كأهل كتاب البقاء على دين آبائهم، وهذا حدث عظيم الأهمية في التاريخ لن يتكرر نظيره إلا في الأندلس الاسبانية؛ التي فتح بعض اليهود أبوابها أمام الفاتح الإسلامي. (طرابيشي، 2000، الصفحات 84 - 85)

إنَّ التاريخ شاهد على أن الكثير من الحروب التي يقوم به طرف معين، وحينما يدخل إلى المدينة التي يحتلها يقوم بالحرق والتدمير والقتل...الخ، لكن لم يحدث ذلك مع المسلمين؛ فالبنية الثقافة التحتية { لسوريا ما قبل الإسلام ستستمر بلا مساس لا في سوريا ما قبل الإسلام فحسب، بل في الإمبراطورية العربية كلها. وفي المرحلة العباسية العباسية ستلتقي هذه البنية الثقافية مع البنية الثقافية العراقية ـ الفارسية، التي بقيت هي الأخرى إلى حد بعيد مصانة، وستعرف الحضارة العربية الإسلامية من خلال هذه الخلطة التاريخية، عصرها الذهبي } (طرابيشي، من النهضة إلى الردة تمزقات الثقافة في عصر العولمة، 2000، صفحة 85)

من هنا نفهم أن دور الإسلام كان فعالا جدا في تطوير الحضارة العربية الإسلامية، فلو كان دينا يحُثُّ على كراهية الآخر وقتله وإقصائه لما شيد المسلمون هذه الحضارة العظيمة.

هذا ويرى "طه عبد الرحمان" أن العامل الذي ساعد على بروز الحضارة العربية الإسلامية يتمثل في أن المجتمع العربي آنذاك كان يحوي كل من المسيحي والصابئي واليهودي؛ كما كان منهم المسلم مبدعين لصنف واحد من العلوم، فقد كان منهم الفقيه والأصولي، والمتكلم والصوفي، الطبيب والفيلسوف والكيميائي، ولقد كان هؤلاء من مشاهير وأفذاذ العلماء؛ لأنهم استمعوا إلى صوت العقل، واستفادوا من بعضهم رغم اختلاف ديانتهم. (طه، 2015، صفحة 211)

من هنا نفهم أن سبب الذي ساعد على تطور الحضارة العربية الإسلامية في العصر الوسيط هو الأطر الاجتماعية، فالدولة الإسلامية كانت قوية، والمجتمع الإسلامي كان مجتمعا ثريا فتح الباب أمام كل الأعراق والديانات المختلفة وهذا بفضل الفتوحات الإسلامية؛ وتعاليم الدين الإسلامي المتسامحة؛ وهذا التنوع الثري شبيه بالتنوع الموجود في الغرب اليوم، وعليه كان التطور يأتي من المسيحيين والمسلمين وحتى اليهود، لأن هؤلاء في عصرهم أحكموا منطق العقل، وأحسنوا التفكير به.

هذا ويؤكد "طرابيشي" أن الانتلجنسيا " السورية ـ العراقية ـ الفارسية" كانت حاملة للتراث اليوناني المكتوب باليونانية، كما أنها { انصرفت في جو نادر في تلك الأزمنة من الحرية، إلى ممارسة فعاليتها الثقافية في مختلف فروع العلوم النقلية والعقلية. فابتداء من مطلع القرن الثاني للهجرة رأت النور بالتواقت، كما بالتوالي علوم اللغة والعروض والفقه والكلام والمنطق والطبيعيات والفلسفة، فضلا عن العلوم العلمية مثل الحساب والفلك والحيوان والنبات والطب، وفي نفس الوقت ترجمت مئات الكتب، بل آلافها، عن اليونانية في المقام الأول، ولكن كذلك عن الفارسية والهندية والقبطية والبابلية } (طرابيشي، 2000، صفحة الصفحة نفسها)

من هنا نفهم أن الحضارة الإسلامية كانت منفتحة على كل الثقافات، والدليل حركة الترجمة الزاخرة آنذاك، التي أسهمت في نقل الكثير من العلوم والمعارف؛ كما أن اللغة وأية لغة هي أداة للتواصل بين البشر، وهي الوسيلة الوحيدة للتعبير لكل مواصفاته. (شطوطي، 2011، صفحة 131)

هذا ويذهب "طرابيشي" إلى أن تجليات الانفتاح في الحضارة العربية الإسلامية يتمثل في: أنها حضارة مارست الغزل والتشبيب بالحب والايروسية بشتى مضامينها بدءا بجميل وبثينة وانتهاء بابن زيدون وولادة بنت المستكفي؛ كما أنه رغم التحريم الديني إلا أن هذه الحضارة أنشدت للخمر قاربت أن تكون روحانية؛ كما أنها حضارة أولعت بالغناء وفن الموسيقى؛ وخير دليل على ذلك كتاب "الأغاني" "لأبي فرج الأصبهاني"، وما من حضارة غنت لله وتغنَّت به مثل الحضارة العربية الإسلامية، فأدب التصوف الإسلامي أغنى من نوعه في تاريخ الآداب العالمية بإطلاق. (طرابيشي، 2000، الصفحات 87 - 88)

كما يؤكد "طرابيشي" أنه ما من حضارة قبل الحداثة الغربية؛ أوسعت للعلم والفلسفة هامش الاستقلالية والحرية الذي أوسعته لهما، وإذا كانت فلسفة العصر اللاتيني المسيحي لا تعدو أن تكون لاهوتا، أو خادمة له على حال، وعلى حين أن أكثر علماء المسيحية اللاتينية كانوا لاهوتيين أولا، فإنه ما من أحد من علماء الحضارة العربية الإسلامية كان لاهوتيا باستثناء "ابن رشد" الذي كان فقيها فضلا عن كونه طبيبا وفيلسوفا؛ ونصير الدين الطوسي الذي كان عالم كلام، وعالم فلك وفيلسوف. (طرابيشي، 2000، صفحة 88)

لكن ينبغي التأكيد هنا أنه من بين مظاهرالانغلاق هو التهجم على الفلسفة، لذلك يورد "طرابيشي" مثال على متخصص في التهجم على الفلسفة وهو "شهاب الدين السهروردي" تخصص في التهجم على الفلسفة؛ وفي الرد على الفلاسفة بالقرآن كما يقول أحد كتبه، وعنوان أحد كتبه دال على ذلك فهو موسوم بـ: "كشف القبائح اليونانية ورشف النصائح الإيمانية"، والتاريخ الإسلامي شاهد أيضا على محاكم تفتيش ومحارق حقيقية أقيمت للفلاسفة وكتبهم، ولقد ورد في "كامل" "ابن الأثير" أنه لما تولى المستنجد الخلافة ورغب في القضاء على ما كان في الإدارة من فساد؛ قبض على أحد القضاة فأمر بأمواله فأُخذت، كما أُحرقت كتبه والتي منها كتاب الشفاء لـ: "ابن سينا"، وكتاب "إخوان الصفاء" وما يشاكلها. (طرابيشي، 1998، الصفحات 67 - 68)

هذا ومع القرن الخامس هجري، الذي بدأ مع صدور بيان الاعتقاد القادري، وانتهى مع تكفير "الغزالي" للفلاسفة في "تهافت الفلاسفة"، بدأت ملامح الانغلاق، وفي إطار هذا النكوص التاريخي أخذت عملية "أسلمة الإسلام" كما يرى "طرابيشي"؛ ومن قبله "البغدادي" مؤلف "الفرق بين الفرق" إيقاعا متسارعا، وإذا كان الغزالي رفض الفلسفة واستبقى المنطق فإن ابن تيمية" رفض المنطق والفلسفة معا، وجاء بعده "السيوطي" وحدد موقفه من المنطق وأضاف إلى ذلك رفض علم الكلام. (طرابيشي، 2000، الصفحات 88 - 89)

من هنا نفهم حدَة الانغلاق في الثقافة العربية الإسلامية، فإذا كان علم الكلام { هو الكلام الذي يتضمن الحِجَاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة } (خلدون، 2010، صفحة 388) فلماذا يتم رفضه؟ والأرجح أن رفضه كان بسبب أنه يستخدم أدوات المنطق والفلسفة في دقيق الكلام، ورغم أن غايته شريفة إلا أن رفضه ينم عن انغلاق وتعصب غير مبرر

زد على ذلك أن "السيوطي" لم يتوقف عند هذا الحد بل وصف الفلاسفة بأنهم من أخس خلق الله حيث يقول: { من أخس الناس علما وعملا، وكفار اليهود والنصارى أشرف علما وعملا منهم من وجوه كثيرة؛ والفلسفة كلها لا يصير صاحبها في درجة اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل، فضلا عن درجتهم قبل ذلك } (السيوطي، 1970، صفحة 167)

إنَّ الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بل وصل الأمر بتلميذ "الغزالي" "أبو بكر بن العربي" إلى التبرؤ من كبار أصحاب التواريخ والموسوعات الأدبية من أمثال "المسعودي" و"ابن قتيبة"، و"المبرَّد" و"الجاحظ" داعيا إلى الحذر من هؤلاء المبتدعين، ومقاطعة "المفسرين والمؤرخين وأهل الآداب". (طرابيشي، 2000، صفحة 89)

إنَّ هذا الرفض يمثل عقبة أمام تطور العلم والمعرفة؛ فمن المعلوم أن الحداثة الأوروبية استفادت كثيرا من المفكرين أصحاب الموسوعات الكبيرة، لأن ذلك يمثل تراكم معرفي، والذي هو شرط الانطلاق في الإبداع المعرفي والعلمي.

إنَّ من مظاهر الانغلاق في الثقافة العربية الإسلامية تغييب العقل والتقليص من فعاليته" لذلك نجد "أبو المضفر السمعاني" والذي ينتصر للأيديولوجيا الحديثية يقول أن أهل السنة ينظرون إلى العقل على أن { لا يوجب شيئا على أحد، ولا يرفع شيئا عنه، ولا حظ له في تحليل أو تحريم، ولا تحسين ولا تقبيح، ولو لم يرد السمع ما وجب على أحد شيء، ولا دخلوا في ثواب ولا عقاب } (السمعاني أ.، 1996، صفحة 75)

هذا ولقد سبق أن أوضحنا أن القرآن والإسلام مبني على الانفتاح لذلك حدث ما يسميه "طرابيشي" "تغييب القرآن" فإن لم يكن ذلك صريحا فضمنيا، وإن لم يكن منطوقا به فمسكوتا عنه، ومع ذلك يرى "طرابيشي" أن القرآن يبقى خطابا مفتوحا، والخطاب المفتوح يُبقي بدوره باب التأويل مفتوحا، والتأويل يقتضي اشتغال العقل وإلا فلا يمكن اعتباره تأويلا. (طرابيشي، رابطة العقلانيين العرب، الصفحات 619 - 620)

إنَّ تقييد العقل وتغييبه هو الذي أسهم في انتشار الكثير من الأحاديث التي توضح معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهي أحاديث كاذبة إلى الحد الذي وصلت تلك المعجزات إلى 3000 معجزة؛ يقول "طرابيشي" {من هنا فإن الثقافة العربية الإسلامية لم تساورها الحاجة قط إلى معرفة علمية لقوانين الطبيعة والكون، ولم تجد نفسها بالتالي مدفوعة إلى اجتراح ثورة كوبرنيكية كتلك التي أعطت شرارة الانطلاقة للحداثة الأوروبية بتحويلها بؤرة اهتمامها المعرفي من "عالم الكتاب" إلى "كتاب العالم"، وبقلبها اتجاه مسارها من "العقل الديني" إلى "العقل العلمي } (طرابيشي، 2008، صفحة 177)

من هنا نفهم أن العقل حينما يكون منغلق فسيكون عقل ساذج وكسول، ولا يشتغل للكشف عن القوانين التي تتحكم في الطبيعة، كما أنه يكون عاقل تابع، ولا يعيد النظر في كل ماسلَّم به على أنه صحيح.

5- مناقشة قراءة طر ابيشي لإشكالية الانفتاح والانغلاق في الثقافة العربية الاسلامية:

لقد سبق وأن استخدمنا كتاب "مذبحة التراث" في محطة من المحطات السابقة وبالضبط حينما استخدمنا موقف "الأرسوزي" من غير المسلمين، ولعل ما يلفت انتباهنا هنا هو عنوان الكتاب، لذلك نجد "علي حرب" على الكتاب يقول: { قلت عند صدوره بأنه ما هكذا يكون النقد المنتج والفعال، وبأن مصطلح "المذبحة"، لا يصلح لقراءة الأعمال الفكرية والخطابات الفلسفية، ذلك أن النقد لم يعد مجرد نقض للأحكام بقدر ما أصبح بحثا عن شروط الإمكان...والأحرى القول إن النقد هو اجتراح ممكنات للتفكير، بتشكيل موضوعات جديدة أو افتتاح حقول جديدة تتغير معها علاقتنا بالمسائل المطروحة } (حرب، 1998، الصفحات 179 - 180)

إنَّ هذا النص يوضح أن مصطلح المذبحة ليس مصطلحا علميا؛ وإذا علمنا أن هذا الكتاب يعرض فيه "طرابيشي" تيارات قارئة للتراث، ومن خلال إسقاط هذا العنوان على تلك التيارات؛ فأنه ما من شك أن "طرابيشي" ينظر إلى تلك التيارات على أنها ارتكبت مذابح في حق التراث، والحال أنه ينبغي لـ"طرابيشي" أن يتحلى هنا بمزيد من ثقافة الاعتراف والانفتاح، وأن يُثمِّن أي مساهمة في قراءة التراث مع نقد جذري لها.

هذا وينبغي التوقف هنا عند تلك الجراح التي يتحدث عنها "طرابيشي"، وهي جراح تنتمي إلى المجال السيكولوجي، يجعلنا نشير إلى أن صاحب مشروع نقد النقد يدرس التراث والفكر العربي بناء على منهج التحليل النفسي، ولكن التركيز فقط على الجانب النفسي لا يجعلنا نلم بكل ما يتعلق بالتراث الإسلامي والفكر العربي المعاصر.

لأجل ذلك نحن بحاجة إلى شهادة "محمود أمين العالم" في هذه النقطة حيث يقول {ولهذا فإن الاقتصار على تفسير هذه العودة إلى التراث بمكونات اللاشعور هو تفسير ضيق وقاصر؛ وما قدمة طرابيشي في هذا القسم من كتابه *2من تحليل نفسي سريري للفكر العربي المعاصر يتضمن ـ موضوعيا ـ طمسا للدلالة التاريخية والاجتماعية والقومية للمواقف المختلفة من التراث ولا يفضي إلى وضوح موضوعي لأساليب العلاج لهذه الظواهر النكوصية، اللهم إلا بالتوصيات والدعوات التنويرية المجردة} (العالم، 1996، صفحة 45)

نفهم من خلال هذا النص أن ما يُعاب على قراءة "طرابيشي" للثقافة العربية الإسلامية؛ هو أن الرجل ركز فقط على الجانب النفسي، بينما الفكر يتأسس على جوانب مختلفة نفسية وسياسية واقتصادية واجتماعية ...الخ

إن انتصار "طرابيشي" للإسلام وإقراره بفضل الإسلام والمسلمين على غيرهم في العصر الوسيط، يُحسب له، فهو يبيَّن أخلاق الاعتراف لدى الرجل، لكن في مقابل ذلك هناك جوانب سلبية في شخصية الرجل المعرفية، وتتمثل في أنه أحيانا يُنقص من شأن بعض المثقفين أمثال "محمد عابد الجابري" الذي وجدنا أنه في محطة من المحطات يقول عنه أنه يمارس التحريف، أو أنه قام بـ"فضيحة معرفية" (طرابيشي، 2004، صفحة 15)

إن هذا الوصف لا يليق تماما بشخصية فكرية مثل "جورج طرابيشي" هذا الرجل الذي يدعو إلى الانفتاح والعيش المشترك واحترام الآخر ، فـ"محمد عابد الجابري" أو غيره اجتهد وقرأ وفكَّر ويبقى مشروعه يحوي حدود ومكاسب؛ فالحدود هي النقائص التي لا تتطور إلى بالنقد الموضوعي؛ النقد الذي لا يحضر فيه التجريح، والمكاسب هي ما يمكن أن يفيدنا في أفكارنا ومشاريعنا وهي ما نعتقد أنه صحيح من أفكار الرجل، أما أن نقول أن الرجل يقوم بفضائح معرفية؛ فهذا القول لا يقوله أصحاب ذهنية الانفتاح.

هذا ويؤكد "الأعرجي" أن "طرابيشي" شوه نقده بعبارات هجاء وسخرية صريحة ونابية في بعض الحالات؛ فهو فوت على نفسه الرفع من قيمة النقد؛ وتقديم صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه النقد المنزه من المهاترات التي قد تكون شخصية أكثر منها موضوعية. (عمر، أكتوبر 2017، صفحة 281)

إن هذا النقد لا ينقص إطلاقا من القيمة العلمية لـ"جورج طرابيشي" فهو وإن كان يستخدم عبارات هجاء ضد "الجابري"؛ إلا أنه يعترف له بفضله عليه، فلولاه لما أعاد قراءة التراث وتكوين نفسه تكوينا جيدا، فهو يركد أن ناقد العقل العربي له قوة كبيرة في التأسيس النظري، ويصرح "طرابيشي" أنه بعد قراءته لكتاب "الجابري" "تكوين العقل العربي" كتب في العدد الأول من مجلة "الوحدة" يقول: {إن الذهن بعد مطالعة تكوين العقل العربي لا يبقى كما كان قبلها. فنحن أمام أطروحة تُغير، وليس مجرد أطروحة تثقف.} (طرابيشي، 1996، الصفحات 11 - 12)

*2 يقصد مذبحة التراث

6- الخاتمة:

من خلال ما تقدم نستنتج أن "طرابيشي" رغم أنه مسيحي إلا أنه يتحلى بدرجة عالية من ثقافة الاعتراف؛ كيف لا وهو الذي يقر أن الإسلام كان متسامحا مع غير المسلمين وأن المسلمين كانوا يعاملون غيرهم باحترام رغم اختلاف الآخر عنهم من حيث المعتقد، إلا أن المسلم كان يعيش مع اليهودي والمسيحي في مجتمع واحد عنوانه العيش المشترك.

إنَّ ما نتعلمه من قراءة "طرابيشي" لإشكالية الانفتاح والانغلاق في الثقافة العربية الإسلامية؛ هو أننا اليوم بحاجة ماسة إلى البراديغم الذي كان موجودا عند الإنسان العربي في العصور الوسطى؛ الذي تعايش مع الآخر سواء كان يهوديا أو مسيحيا ...الخ، فاستطاع تشييد حضارة سيطرت على العالم لقرون عدَّة، بينما اليوم يعاني المجتمع العربي من تمزق وظهر الصراع الطائفي مثل الصراع السني/ الشيعي؛ الذي جعل العرب يتقدمون عدة خطوات إلى الخلف؛ بينما غيرهم يتقدم إلى الأمام بسبب العيش المشترك الذي حققوه.

هذا ومن خلال هذا البحث ندرك إنه على العالم العربي الإقرار بتطور الآخر / الغرب؛ هذا من جهة ومن جهة أخرى ينبغي الاهتمام باللغات وإنشاء مراكز متخصصة في اللغات المختلفة بُغية نقل علوم الآخر والاستفادة منها لتطوير العلوم العربية.

إنَّ "طرابيشي" يتمتع بقدر عال من ثقافة الاعتراف كما قلنا لكن رغم ذلك هناك جوانب سلبية في شخصيته المعرفية؛ وتتمثل في أنه أحيانا يقلل من شأن غيره، كتقليله من شأن "الجابري" أو اتهامه بأنه يمارس الزيف والتحريف، فالنقد الموضوعي المبني على ذهنية التفتح؛ يقتضي أن يكون النقد بعد قراءة جيدة للمشروع دون تجريح أو تقليل من شأن الغير، لأن الهدف هو تصحيح الفكرة وليس الهدف مسألة شخصية.

هذا ونخلص إلى أن الانغلاق والسعي إلى تقييد العقل العربي هو ما أسهم في بروز العديد من المعجزات المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهي التي جعلت العقل العربي كسولا ينظر إلى الكون على أنه محكوم بمنطق المعجزات لا بمنطق القوانين التي يجب عليه كشفها والقرآن يدعو إلى ذلك، وتمظهرات هذا الانغلاق وآثاره موجودة إلى اليوم، إذ يسعى الكثير من الناس إلى إثبات اسم الجلالة في حيوان معين أو جماد أو ...الخ، بدلا من فهم الكون وتطوير النظريات العلمية، ولأجل ذلك يجب تطوير العلوم والفلسفة لتنشيط العقل وتقوية أدواته.

- قائمة المصادروالمراجع:

أبي المضفر منصور بن محمد السمعاني. (1996). الانتصار لأصحاب الحديث. ط1. المملكة العربية السعودية: مكتبة أضواء المنار.

جلال الدين السيوطي. (1970). صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام. ج2. ط1. مصر: سلسلة إحياء التراث الاسلامي.

جورج طرابيشي. (2004). العقل المستقيل في الإسلام . ط1. بيروت: دار الساقي.

جورج طرابيشي. (1991). المثقفون العرب والتراث التحليل النفسي لعصاب جماعي. ط1. لندن: رياض الريس.

جورج طرابيشي. (2008). المعجزة أو سبات العقل في الإسلام. ط1. لبنان: دار الساقي.

جورج طرابيشي. (2012). مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة . ط3. بيروت: دار الساقي.

جورج طرابيشي. (1998). مصائر الفلسفة بين المسيحية والاسلام. ط1. لبنان: دار الساقي.

جورج طرابيشي. (رابطة العقلانيين العرب). من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث. ط1. لبنان: دارس الساقي.

جورج طرابيشي. (2000). من النهضة إلى الردة تمزقات الثقافة في عصر العولمة. ط1. بيروت: دار الساقي.

جورج طرابيشي. (1996). نقد نقد العقل العربي: نظرية العقل. ط1. بيروت: دار الساقي.

جورج طرابيشي. (2006). هرطقات عن الديموقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية. ج1. ط1. بيروت : دار الساقي ورابطة العقلانيين العرب.

جورج طرابيشي. (2008). هرطقات2 عن العلمانية كإشكالية إسلامية - إسلامية . ج2. ط1. بيروت: دار الساقي ورابطة العقلانيين العرب.

جويدة جاري. (2017). التراث العربي الإسلامي بين النقل والابداع وجهود العلماء في النهوض به. مجلة دراسات فلسفية ، 14. ص 29 - 44

طه عبد الرحمان. (2015). سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد. ط1. لبنان: المؤسسة العربية للفكر والإبداع .

عبد الرحمان بن خلدون. (2010). مقدمة ابن خلدون. ط1. القاهرة: دار الجوزي.

عبد الرحمان بوقاف. (2017). مقالات فلسفية. ج1. ط1. الجزائر: الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.

علي حرب. (1998). الماهية والعلاقة نحو منطق تحويلي. ط1. المغرب ولبنان: المركز الثقافي العربي.

متعب القرني. (2000). أقطاب الفكر العربي 1918- 2018. ط1. المملكة العربية السعودية: دار مدارك.

محمد قطب. (1992). جاهلية القرن العشرين. ط12. القاهرة: دار الشروق.

محمد قيروان ومحمد شطوطي. (2011). منهجية البحث الفلسفي. ط1. الجزائر: دار المواهب.

محمود أمين العالم. (1996). مواقف نقدية من التراث. دط. القاهرة: دار القضايا الفكرية.

نزهة الحاج عمر. (أكتوبر 2017). الاعرجي بين نقده ورفده دراسات وآراء حول فكره ونظرياته. ط1. بريطانيا: دار أي كتب .